إهداء

إلى أبنائي محمد وهَنا علهم يعرفون أن كلمة الحق شرف حتى لو كنا في دار الباطل.

وإلى زوجي ماجد رفيق أغلب العمر والرحلة والسند.

حنان شومان

obeikan.com

obeikan.com

المقدمة

ما بين دفتي هذا الكتاب كلام على ورق خطَّه القلم علّه يكون تاريخًا لوطن من خلال مواطنة احترمت وعشقت الكلمة التي كانت دائماً في البدء، فإن أخطأت لي أجر المحاولة أما وإن أصبت فلي أجران.

لماذا الآن؟

عشت سنوات في بداية رحلتي مع الصحافة أتصور أني أعمل في مهنة الحق والخير والجمال ، ولكن السنوات مرت والتجارب تكالبت فرأيت نجومًا تكتب عن الحق وهي أقرب للضلال ورأيت وسمعت نجومًا للكلام يتحدثون عن الشرف وهو في حالة خصام معه ، والتقيت في رحلتي بملائكة وشياطين وكنت أظن أن ذكرياتي معهم وحولهم هي زاد خاص بي . إلى أن جاء يوم ٢٥ يناير عام ٢٠١١، حيث تغيّر وجه الحياة في مصر فعشت أياماً لم أكن أتخيل أن أكون جزءاً منها في يوم ما، فقد قرأت عن الثورات في كتب التاريخ، وكم تمنيت أن أكون جزءًا من ثورة عامة لأني كنت دائماً في الأصل في ثورة خاصة، فأتي يوم ٢٥ يناير ليحقق لي هذا الأمل والحلم.

وتتابعت أحداث تلك الثورة كما سيكتبها حراس التاريخ، وأنا لست منهم، غير أني فقط أستطيع أن أكتب تاريخًا خاصًا بي أي خاص بمواطنة عاشت في هذه المرحلة التي حَفُلت بزلازل في المجتمع المصري راحت تنفضه من أعلى لأسفل، أيام حملت خليطًا من مشاعر الانتصار والانكسار، والإيمان والكفر ،والشك واليقين، فالكل يحاول أن يتهم الكل بأنه كان من الظالمين أو الفاسدين أو المفسدين، وخرجت صحافة مصر عن بكرة أبيها تحكي في حكايات الفساد وكل من يكتب ينفض يده منه وكأنهم جميعاً ملائكة أطهار وما كانوا في يوم ما كذلك إلا قليلاً.

سمعت وقرأت وشاهدت سيركًا كبيرًا، وآثرت الابتعاد عن الحياة لبعض الوقت،

فبعد أن انتهت الثورة الحقيقية في الشارع عدت إلى بيتي الذي طالما أبعدني عنه العمل، وبدأت في مراقبة المشهد، ولا أنكر أن أغلبه قد أصابني بالإحباط ونوع من الاكتئاب الذي يبدو أنه يأتي تالياً للنشوة التي عشتها أياماً.

بينما راحت الصحافة والصحفيون والإعلام يفتشون في تاريخ بعضهم البعض، رحت أنا أفتش في تاريخي الخاص وأنا لا أملك من التاريخ إلا مجموعة من قصاصات من صحف مختلفة حملت كلماتي على مدي سنين، قصاصات كنت أقصها من صحف أعلم أنها بعد وقت قليل من صدورها تجد طريقها إلى سلة المهملات، فالصحف برغم كونها دواوين لوصف حال البلاد فإنها في النهاية يكون مكانها سلة المهملات أو على منضدة فقيرة يأكل عليها الناس ويلفون فيها بقاياهم لتلقى أيضاً في سلة المهملات، ولكني احتفظت ببعض من تلك المهملات علّني أراجع نفسي يوماً فيما كتبت، أو أحاسب نفسي عما فعلت.

وها قد أتي الوقت الذي يحاسب فيه الكل الكل، وقد آثرت أنا أن أكون الرقيبة الحسيبة على نفسي بدلاً من أن أحاسب غيري كما يفعلون. ولذا قررت أن أجمع بعضاً مما كتبت بشكل منهجي، لا ليكون فقط رصداً لتاريخ شخصي، لأن شخصي هنا ليس هو الهدف ولكن لأنني رغماً عني وأنا أجمع هذا التاريخ، أجمع أيضاً تاريخًا خاصًا بمراحل في حياة هذا الوطن ليس لقيمة خاصي بي ولكن لقيمة خاصة بها كنت أكتب عنه.

وفي ذلك تذكرت ما قاله لي الأديب الكبير خيري شلبي رحمه الله حول ضرورة أن أتجه للكتابة في كتب قد تضمها مكتبات، وليس في صحف تتطاير أوراقها بعد ساعات من طباعتها.

عشت عمري كله أعمل في الإعلام صحافة وتليفزيون والتي يرى فيهما كثير من القراء والجمهور وحتى العاملين بها قلاع من الخطيئة، خطيئة الصمت أحيانًا أو التدليس غالبًا أو الاثنين معًا، ولكني أزعم أني ما صمّت على خطأ أدركته أو خير علمته، وما شاركت في تدليس حقيقة علمتها عن الناس، ولكني متهمة ككل أهل المهنة فهل لو حاولت أن أنفي عن نفسي التهمة وأصنع بين يدي القارئ في ذات الوقت أهم ملامح عقد من الزمان أكون قد أصبت أو أخطأت؟

سؤال لا أملك الإجابة عليه، أنت فقط أيها القارئ لك الحكم والإجابة.

حنان شومان

القاهرة في ٣/ ٢٠١٢

openlibrary.com

بداية الحكاية

حين قررت أن أستعيد ذاكرتي من خلال الورق وكلماتي عليه، كان لزاماً عليّ أن أفكر في البداية، من أين أبدأ؟

هل من بداية المشوار، حين كنت صبية صغيرة لم يتعد عمرها خمسة عشر عاماً تحلم بأن ترى اسمها مكتوباً على صفحة جريدة فوجدته على صفحات مجلة صباح الخير، أم من منتصف الطريق، أم من سنوات قليلة حفلت بأحداث جسام وتغيرات عريضة؟ وخبرة حفرتها الأيام

ولكني أستأذنك يا عزيزي في أن أحكي لك البداية وجزءًا من الطريق، ليس كما سطرته على صفحات الجرائد ولكن كما شاهدته وعايشته، فهي حكاية أظنها لن ولم تُكتب، ولم أكن لأستطيع أن أكتبها في حينها.. فقصتي مع صاحبة الجلالة كثير فيها غير منشور وكثير منها أيضاً منشور. أما عن غير المنشور فهو ما سأحكيه لأنه مجرد مقدمة لسنوات في قلعة الخطيئة.

- كنت فتاة صغيرة ربما في السنة الأولى الابتدائية، شقية مندفعة، تدرس في مدرسة أمريكية، وقت أن كان التعليم يحمل معنى التربية والتعليم فتقرر المدرسة أن ترسل الصغيرات في رحلة إلى المطافئ لتتعرف البنات على جزء من عمل الشرطة، لا أذكر كثيراً من تفاصيل الرحلة غير انبهاري بسلم المطافئ الطويل جداً والذي قررت أن أتسلقه دون غيري من البنات حتى أصل إلى أقصى ارتفاع له أثناء شرح المسئول لنا، ومن الغريب أنني أذكر كل مشاعر الخوف والترقب والمغامرة التي صاحبت صعودي على سلالم المطافئ،

وتصفيق المسئول لشجاعة الصغيرة، وخوف مدرستي على البنت الشقية العفريتة كما كانت تقول، ولكنها أيضاً أبداً لم تنهرني لأني فعلت ما فعلت.. ففي تلك الأيام لم يكن المعلم إلا تجسيداً لمعنى الكلمة، وأزعم لو أن بي خيرًا فأغلبه يعود إلى هذه الوجوه الرائعة من كثير من مدرسي مدرستي، المهم أني عدت إلى بيتي أحكي لأمي وأبي عن الرحلة إلى المطافئ دون انقطاع، وأؤكد لهما قصة صعودي للسلم دون غيري.

وبعد يومين ناداني أبي وبين يديه صحيفة كنت أرى على صدرها الأهرامات الثلاثة وأشار لي بيده على صورة في الصفحة الثالثة فإذا بها صورتي على سلم المطافئ، وهنا صرخت غير مصدقة فعلى هذا الورق الأقرب إلى الصفار المكتوب عليه باللون الأسود صورة لي تؤكد صدق قصتي التي شعرت حين حكيتها أن أسرتي تشككت في صدقها.. فوقعت في هوى الأوراق من النظرة الأولى.

فيبدو أن مصوراً صحفياً من الأهرام تصادف أن كان موجوداً في نفس توقيت زيارة مدرستي لمبنى المطافئ وجذبته صورة الفتاة الصغيرة أعلى سلم المطافئ فالتقط صورتي ونشرها حتى دون أن يعرف من أكون، ولم يكن في مخيلته أن هذه المصادفة والصورة المنشورة ستفجران حباً مجهولاً لدي فتاة صغيرة، فوقعت في هوي وأسر هذه الصحيفة التي تحكي الحقيقة وتؤكدها حتى لو تصور الآخرون أن ما تقوله خيال!

وبدأت علاقتي بالصحافة قبل حتى أن أعرف كيف أفك لغتها، وكنت لعجبي كلما أقص قصة على والدي وهي أقرب للخيال أتمني لو طبعها أحد على هذه الورقات ليتأكد أبي وأمي من صدق ما أقول، وكأن الصحافة صارت لدي الطفلة الصغيرة مرادفة للصدق والحقيقة وإن غيرت الأيام والواقع هذه التصورات غير أن تلك قصة أخرى.

المهم أني ارتبطت بالصحافة والصحف دون فهم حقيقي لتلك المهنة، وتمر الأيام بي، فتاة صغيرة تقع في هوي اللغة العربية رغم أن كل دراستي كانت باللغة الإنجليزية، ولكن حين يكون لك مدرس كالأستاذ محمود فلا يمكن إلا أن تهوي ما يدرسه لك، والأستاذ محمود أو مستر محمود كما كنا نطلق عليه - دون أن نعرف اسمه كاملاً - والآن أشعر بحزن أني لن أشير إليه باسمه كاملاً على الأقل لكي أعطيه حق العرفان والتقدير، ولكن على كل حال فمستر محمود أستاذ اللغة العربية كان شاباً في الثلاثين على أكثر

تقدير، يمتاز بالطول الفارع والرشاقة، ورشاقته لم تكن تنحصر فقط في الجسم ولكن في العقل والقدرة على جعل البنات اللاتي يتحدثن الإنجليزية بلكنة أمريكية يتحدثن العربية ويحببنها بنفس القدرة! وكنت واحدة من هؤلاء البنات، فوقعت في هوى صفحات الجرائد، وفي اللغة التي يكتبون بها على تلك الصفحات، كما وقعت في هوى شاشة سينما مترو والأفلام التي تحقق كل الأحلام، وما بين صفحات الكلام على الورق وأفلام السينما، انحصرت كل الأحلام منذ الصغر.

وحين وصلت إلى مرحلة عنق الزجاجة أو الثانوية العامة - كما كانوا ومازالوا يطلقون عليها، كنت أهيئ نفسي للمرحلة الأولى من تحقيق الحلم وهي الالتحاق بكلية الإعلام لدراسة الصحافة، وفي ليلة من ليالى المذاكرة الدوب قررت أن أكتب خطاباً لرئيس تحرير مجلة صباح الخير، وكانت حينذاك المجلة التي يقرؤها ويحبها الشباب مثل مجلة «كلمتنا» أو «إحنا» حالياً، كتبت خطاباً حالماً لرئيس التحرير أقول له فيه عن أحلامي وأمنياتي وكيف أني أتمنى أن أكون يوماً اسمًا مطبوعًا على صفحات المجلة، وطبعاً لم أكن لأتخيل أن يصل الخطاب.. وإن وصل فكنت على ثقة أنه سيكون مصيره سلة المهملات، ولكني على كل حال كتبته وأرسلته وكأني كنت أكتبه لنفسي ولمجرد ألا أنسى أحلامي في غمرة المذاكرة للثانوية العامة.

ولكن ولعجبي حين مر الأسبوع وقرأت العدد الجديد من مجلة صباح الخير وجدت خطابي منشوراً على صفحة كاملة وردًا علنيًا يقول لي: إن المجلة ترحب بي صحفية بها بعد انقضاء امتحانات الثانوية العامة، لأن من تكتب مثل هذا الخطاب فمن المؤكد أنها ستكون صحفية واعدة.. ولا أستطيع أبداً أن أنقل مشاعري حين قرأت رسالتي والرد عليها.. أصابني جنون.. صرخت وبكيت وضحكت، حتى ظن أهلي لحظتها أن عفريتاً قد لبسني، ورحت أعد الأيام لتنتهي امتحانات الثانوية العامة ليس لكي أنعم بالراحة أو بالإجازة، ولكن لكي أذهب للقاء رئيس تحرير مجلة صباح الخير.

وفعلاً مرت الأيام إلى أن أتي أخر يوم في الامتحانات وأوصلني أبي وأنا ابنة الخامسة عشر عاماً وضفيرتان وملابس المدرسة إلى شارع قصر العينى، حيث يوجد مبنى مجلة صباح الخير وصعدت حيث حجرة رئيس التحرير ووجدتها مفتوحة على مصراعيها

ودخلت تتملكني رهبة وفرحة لا يمكن وصفها.

وجلست بين يدي الرجل الذي ظن في البداية أني ابنة أحد الصحفيين ولكنه حين أدرك من أكون تذكر خطابي وطلب مني أن أكتب له موضوع يعبر عني في نصف ساعة فكتبت تحت عنوان مذكرات طالبة حكايتي مع الثانوية العامة، فأخذ مني رئيس التحرير الموضوع ونادى على سكرتير التحرير وأشار إليه بأن ينشره ثم التفت إليّ قائلاً: هاتي صورة علشان نرسمك؟ بدت عليّ فيّ هذه اللحظة علامة البلاهة فهل يعني الرجل أنني سأرى اسمي وصورتي على صفحات مجلة صباح الخير، وهل من المعقول أن أدخل مكتبًا وأنا طالبة في آخر أيام الثانوية العامة وبكلمة من رجل بدين بشوش الوجه أتحول إلى أسم وصورة وكلام على ورق بلا واسطة وبلا معرفة وبلا أي حاجة خالص.

ولم تكن تلك المفاجأة الوحيدة التي أصابتني بالبله والخرس، ولكن نفس هذا الرجل بصوته وشحمه ولحمه أضاف قائلاً بأنني مطالبة بأن أكتب موضوعاً كل أسبوع بعنوان مذكرات طالبة وأسلمه كل يوم أحد أو إثنين، أي بعبارة أخرى أني سأكون من الصحفيين الدائمين في المجلة!

ومهما حكيت أو حاولت أن أنقل مشاعر فتاة الخامسة عشر عاماً، صاحبة الضفيرتين، ستعجز الكلمات فدعني أترك لك تصور تلك المشاعر علّك تسرح بذاكرتك إلى ماضٍ بعيد كان فيه أساتذة يدفعون الصغار إلى تحقيق الأحلام بعد أن فقدنا منذ ماضٍ ليس ببعيد الأساتذة والتلاميذ على الأقل في مهنتي.

وما بين البداية على صفحات مجلة صبح الخير حتى الآن على صفحات جريدة اليوم السابع، رحلة طويلة دفعتني إلى كثير من الانكسارات والانتصارات التقيت فيها بعض النجاح وكثيرًا من العثرات، رأيت فيها بشرًا، تابعت صعودهم على كثير من المعاني القيمة وسقوطهم تحت أقدام نفس المعاني القيمة، والتقيت فيها بنجوم الكلام الذين تصورت أنهم بعض من الكمال بسبب الكلام، ولكنني اكتشفت أن ليس كل الكتابة على الورق تتساوى مع أصحابها في القيمة.

رحلة لم تبق منها إلا صورة لوجوه بعضها بشوش طيب قيم.. مد لي يدًا لخطوة للأمام، وبعضها شرير قليل الموهبة.. مد لي قدمًا عثرتني في الطريق.. وحين أجلس الآن

محاولة أن أتذكر هؤلاء وهؤلاء أطلب الرحمة أو السعادة للوجوه التي مدت لي يدًا، وأشفق من وجوه أرادت أن تعطلني لأنها تاهت في الزحام.

أشياء كثيرة تغيرت وزمن كثير مر.

الألفية الثانية

في رحلتي مع عالم الكلام على الورق التي بدأتها في مجلة صباح الخير، كما سبق وذكرت، وانتهت حتى الآن عند جريدة اليوم السابع، ويعلم الله إلى أي المصير إن كان في العمر بقية.. في هذه الرحلة بدا للبعض من فرط تنقلي من صحيفة لأخرى ومن مجلة لأخرى ومن صحافة قومية إلى صحافة خاصة.. بدا لهم وكأني أشبه بسيزيف البطل الإغريقي الذي اقترف خطيئة فعاقبته الآلهة بأن كتبت عليه أن يصعد على الجبل حاملاً دلواً مملوءا بالماء ولكنه مثقوب حين يصل إلى منتهاه يكون الدلو قد فرغ فيعود ثانية ليملأه ويبدأ في الصعود.

هذا ما تصوره البعض عن رحلتي المهنية ولكنني ما كنت سيزيف.. وإن كانت لي خطيئة فهي أني عشقت تلك المهنة ولم أحلم إلا بها كما تمنيتها. مهنة الحقيقة والصواب والسمو.. مهنة الضمير الحي.

والحقيقة أن كل مكان تركته أو أجبرت أحياناً على تركه كنت أترك فيه أشياء وآخذ معي أشياء أخرى، كنت أترك فيه الإحباط أو الشر أو عدم المهنية وأشياء أخرى سلبية وأرحل بقلمي وبأمل جديد وأشياء إيجابية وخبرة أبدأ بها رحلة جديدة وحكاية جديدة.

وحين فكرت في أن أعود إلى دفاتري أفتش فيها عن تاريخ الكلام على الورق معي، قررت أن تكون البداية هي بداية الألفية الثانية، فالألفية الثانية جاءت لتعلن لي أني عشت قرناً، فقد ولدت في القرن العشرين وها نحن ذا في القرن الحادي والعشرين، عام ٢٠٠٠ كان بالنسبة لي كما بالنسبة للعالم رقم جديدًا وعالمًا جديدًا، ولذا قررت لو سمحت لي أن أصحبك في رحلتي مع الكلام على الورق منذ عام ٢٠٠٠ وحتى الآن.

لقد حاولت أن أجمع كل ما استطعت مما كتبت على تنوعه أحياناً وأزعم أنه تأريخ ورسم لملامح واقع، على الأقل من وجهة نظري، لمجتمع وبشر وسياسة وتفاصيل حياة يومية كان فيها كثير من الأحزان، ولكن أيضاً كان فيها كثير من الأمل

كلامي على الورق هو رسم بعيوني لملامح وطني منذ الألفية الثانية حتى يوم ٢ فبراير حين أتى على مصر عصر جديد دفعني لأن أجلس أحاسب نفسي على ما فات وأضعه بين يدي الآخرين إن أرادوا حساباً.. أما عن حسابي لنفسي فيعلم الله أني ما جلست أمام ورقة وسطرت عليها بقلم كلامًا أعرف أنه سينشر إلا ودعوت الله أن يجعل ما سأكتب لي خيراً وليس عليّ ذنباً، فأنا راضية.. فهل ترضون؟

obeikan.com